د. موس لبنى آمال

جامعة تلمسان

تقديم :

الخطوات الأولى التي مهدت السبيل إلى ظهور المعاجم، هذه الرسائل تناولت موضوعات مختلفة، فالرسائل المختصة جمعت أكثر من موضوع.

1- المرحلة الأولى:

دواعي التعريف بالمفردات [1] أو ما يعرف بالمعاجم القرآنية أو غريب القرآن." لقد جمعت الألفاظ، لإزالة غموضها، وتوضيح معناها، يحصل في كل لغة يتسع مجالها الزماني والمكاني، أي حين يمتد بها الأجل[2].بدأت هذه المرحلة منذ أواخر القرن الأول الهجري، وهي فترة جمع الأحاديث، الشعر، والأدب فكان العلماء يأخذون الألفاظ العربية من أفواه عرب الصحراء أو الوافدين على الأمصار الذين لم تتأثر ألسنتهم بمخالطة الأعاجم ويشير ياقوت الحموي إلى ذلك بقوله عن العكوتيين وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة في مناكحتهم، وهم قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه وأنهم لا يسمحون للغريب أن يقيم عندهم أكثر من ثلاث ليالٍ"[3].

محاضرات في الموسوعات اللغوية

[1] - عبد الحميد الشلقاني، مصادر اللغة، ط2 1982. المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ص 557

[2] - حسين نصار، نشأة المعجم العربي، ص 39.

[3] - ينظر: عبد اللطيف الصوفي، اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية ص37-38.

كانت غاية الجمع في المرحلة الأولى هو الحفاظ على العربية من الدخيل ومن أبرز كتب هذه المرحلة الغريبين وكتب النوادر.

كانت بداية النشاط العلمي عند أجدادنا عفوية المحيطة ، أملتها الظروف " فكان صلى الله عليه وسلّم يفسر للصحابة رضوان الله عليهم كل ما غمض عليهم ويجيب على كل الأسئلة التي كان يوجهونها إليه" [4].

1. كتب الغريب:

غريب القرآن: الغريب هو الغامض من الكلام. وقد كثر التأليف فيه منذ بداية عهد التدوين في سياق تفسير القرآن والحديث، وكان ذلك من بين الدوافع الرئيسية للعناية باللغة العربية لأنها حفلت بالكثير من الكلمات الغريبة استغلت فهمها حتّى على فصحاء العرب[5].

كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلّم ـ هو المعلم والمعجم والمفسر وبعد وفاته قام الصحابة بهذا الدور ونجد ابن عباس على رأسهم، لذلك اعتبر أول مؤلف في هذا الفرع [6].

فكان لابن عباس مجالس يجيب فيها عن العربية والشعر، والغريب من الكلام[7]، وفي هذه الحقبة الزمنية وجه اللغويون جلّ اهتمامهم منذ بداية عصر التدوين إلى فهم المعاني،

محاضرات في الموسوعات اللغوية

[4] - يسري عبد الغني عبد الله، معجم المعاجم العربية، دار الجيل بيروت ط1 1991ص39.
[5] - ينظر: عبد اللطيف الصوفي، اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية ص 40.
[6] - يسرى عبد الغني عبد الله، معجم المعاجم العربية ص39.
[7] - عبد الحميد الشلقاني، مصادر اللغة، ص 550.

ووضع القواعد النحوية لها حرصا منهم على إيجاد أسس سليمة لقراءة القرآن وهكذا تكون حركة التأليف انبثقت مع الإسلام[8] .

وممن ألف في هذا المضمار أبو سعيد بن تغلب البكري المتوفى سنة 141هـ فمنه تأكدنا أن التدوين في هذا الفرع من العلوم لم يتأخر عن النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، وذلك ذكره ياقوت الحموي قائلا:" صنف [أبان] كتاب الغريب في القرآن وذكر شواهده من الشعر" ليأتي بعد عبد الرحمان بن محمد الأزدي الكوفي، فجمع من كتاب أبا ومحمد بن السائب وأبي روق عطية بن الحارث[9] .

وقد ألفت كتب كثيرة في تفسير غريب القرآن نجد من بينها رسالة للأصمعي أبي عبيدة، ابن سلام، ابن قتيبة، وثعلب، وكتاب غريب القرآن لأبي عبيدة ابن المثنى[10] . كما نجد أيضا الأخفش الأوسط سعد بن سعدة، وابن اليزيدي، ولكن للأسف كلها مؤلفات مفقودة وهذه الكتب كلها تفسيرات وشروح للألفاظ الغريبة في القرآن الكريم.

أما منهج الترتيب للمادة اللغوية فقد كان بعضها مرتبا حسب سور المصحف الشريف، وهذا الترتيب كان موجودا في المؤلفات الأولى، والترتيب الثاني هو الترتيب الأبجدي بل يعتبر حديث العهد إلا في القرن الرابع الهجري، وعدّ نشاطا أولا من نوعه في الإسلام[11] .

غريب الحديث:

محاضرات في الموسوعات اللغوية

[8] - ينظر: عبد اللطيف الصوفي، اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية، ص40.
[9] - ينظر: حسين نصار، المعجم العربي نشأته وتطوره، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، ط2 1968 ج1 ص 40.
[10] - ينظر: عبد اللطيف الصوفي، اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية ص41.
[11] - يسرى عبد الغني عبد الله، معجم المعاجم العربية ص45.

بدأ جيل من العلماء يتناول النهج نفسه ، وألفت كتب أخرى في غريب الحديث لكن التدوين في هذا الفرع لم يبدأ مع نظيره" غريب القرآن" بل اختلف كثيرا عنه، وإن كان الكلام فيهما بدأ في وقت واحد [12]. كما ألفت فيما بعد كتب أخرى في غريب الحديث لابن الأعرابي، والشيباني وقطرب، والأصمعي، وأبي زيد الأنصاري، وألف أبو عبيد كتابه المشهور " غريب الحديث" فأطال ونظم وانتزع أعجاب الباحثين[13] . لنجد أيضا ثعلب وابن دريد والأنباري وابن درستويه لتتوالى التأليفات في هذا الباب بصورة أكثر تنظيما ووضوحا وإتباعا ومن أهم ما ألف فيما بعد كتاب" الفائق في غريب الحديث" للزمخشري[14]، وقد راعى فيه الترتيب الأبجدي بالنسبة للحرفين الأول والثاني فقط[15]. لنجد كتابا آخر " النهاية في غريب الحديث" لابن الأثير الذي بلغ الغاية في هذا المضمار، بعد أن رتب الألفاظ على حروف المعجم[16].

2. كتب الفقه:

لم يكن العرب في الجاهلية أمة علوم، وإنما كانت أمة أمية في أغلبها لذلك اضطرت إلى تضمن بعض الألفاظ القديمة معاني جديدة علمية وإلى ابتكار ألفاظها القديمة المشتقات التي أصبغت عليها معاني اصطلاحية وإلى أن تعرب بعض الألفاظ الأعجمية، وخاصة في العلوم الدخيلة. وقد كانت العلوم الدينية أسبق العلوم ظهورا وأكثرها سيادة على المجتمع العربي في أكثر عصوره، وكان للفقه من هذه العلوم منزلة خاصة، عرفها له أهله واللغويون فسنجد خمسة كتب في هذا النوع:

محاضرات في الموسوعات العربية

---

[12] - المرجع نفسه. ص53.

[13] - ينظر: عبد اللطيف الصوفي، اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية ص46.

[14] - ينظر: بسرى عبد الغني عبد الله، معجم المعاجم العربية ص53.

[15] - ينظر: عبد اللطيف الصوفي، اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية ص46.

[16] - ينظر: المرجع نفسه، ص 46.

1. الزاهر في غريب ألفاظ الإمام الشافعي.
2. المغرب في ترتيب المعرب، لأبي الفتح ناصر بن عبد السيد المُطرّزي الخوارزمي.
3. تهذيب الأسماء واللغات لأبي زكريا محي الدين ابن شرف النووي.
4. لغات مختصر ابن الحاجب، لمحمد بن عبد السلام الأموي المكي.
5. المصباح المنير لأحمد المقرري الفيومي.

وتشترك هذه الكتب جميعها في أنها اتخذت قضايا فقهية أساسا لها، وقامت بشرحها في مواردها، ويشترك أكثرها في الإكثار بالاستشهاد بالحديث والإقلال من الشعر، وتشترك أيضا في العناية باللفظ ذي المعنى الفقهي وعدم إيراد شيء من مشتقاته إلا ما يوضح معناه[17].

3. كتب اللغات والعامي والمعرب:

إن بلاد العرب ممتدة الأطراف متباعدة الأرجاء، تتوسطها صحراء فسيحة تتناثر فيها البقاع الخصبة والمراعي، فاختلطت القبائل في مظاهر حياتها ومنها لغاتها وكان الاختلاف في بعض المفردات اللغوية، وطرق اللفظ بها وتأليفها في عبارات، فنجد لغات القرآن، لغات القبائل.

أ. لغات للقرآن: لعلّ هذا الفن أول الفنون اللغوية ظهورا، فقد كانت بذرته الأولى على يد ابن عباس، في رسالة تحت عنوان "كتاب اللّغات في القرآن" .

ب. لغة القبائل: رأى ابن فارس أن اختلاف لغات العرب من وجوه: أحدها: الاختلاف في الحركات كقولنا :"نستعين ونِسْتعين". أما الفراء فأكد على أنها مفتوحة في

[17] ينظر: حسين نصار، المعجم العربي نشأته وتطوره ص 66- 69.

محاضرات في الموسوعات اللغوية

لغة قريش وأسد وغيرهم يقولونها بكسر النون وإذن فالكتب التي تتناول هذه الأمور، أو واحد منها تندرج تحت كتب اللغات وهي كتب الإبدال، التذكير والتأنيث، الأبنية فأمدّت المعاجم بمواد كثيرة.

4. كتب الهمز:

اختلفت القبائل العربية اختلافا كبيرا في موقفها من هذا الحرف الذي يعسر على كثير من الناس اخراجه والتلفظ به، وكان هذا الحرف شجي في حلوق كثير من اللغويين والنحويين حتى استنفذ منهم الجهود الجبارة وسبب لهم كثيرا من الأذى، فجذب أنظار اللغويين فاعتنوا بهذا الموضوع، وكان على رأسهم ابن أبي إسحاق الحضرمي فبرع فيه وفاق أقرانه وألف كتابه فيه وممن ألفوا في الهمز قطرب ثم أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري هذا الأخير الذي ينسب إليه مؤلفان الأول باسم كتاب الهمز، أما الثاني تحقيق الهمز[18].

هذه الرّسائل دونت فيها الكلم على الموضوعات، و كانت في بدء الأمر تخص الموضوع الواحد ولا تتعداه إلى سواه مثلما كانت عليه الحال في كتب خلق الإنسان وكتب خلق الفرس وكتب الإبل، وكتب الأنواء ثمّ صارت تجمع شتى الموضوعات على نحو ما ظهر عليه الأمر في كتب الصفات وكتب الغريب المصنف، وكتب الألفاظ.

1. إفراد موضوع واحد بمؤلف مستقل:

خلق الإنسان: وهذا لون آخر من الموضوعات التي اهتم بها الرواد الأوائل. وكتبهم في هذا الموضوع مفقودة ماعدا اثنين منها أحدهما للأصمعي والآخر لثابت بن أبي ثابت، يحملان

[18] - حسين نصار: المعجم العربي نشأته وتطوره، ص 70.

محاضرات في الموسوعات اللغوية

عنوانا واحد هو " خلق الإنسان". للإمام عبد الملك بن قريب الأصمعي تناول فيه أحوال الإنسان ما قبل الولادة[19] ونجد مؤلفات أخرى في هذا الموضوع كأبي زياد يزيد بن عبد الله بن الحر الكلابي، أبي جعفر محمد بن حبيب[20].

كتب الحيوان: نال الحيوان عناية كبيرة عند اللغويين تضاهي العناية التي لاقاها عند العرب أنفسهم فألفوا في أجناسه المختلفة، وأسمائه وصفاته وأعضائه، ولكن القسط الأكبر من الاهتمام كان موجها إلى الخيل والإبل وهي حيوانات لم يستطع العربي أن يستغني عن احدهما في أية مرحلة من حياته ، بل رعاهما في أكثر الأحيان من رعايته لأبنائه، كما ألفوا في الحشرات ويعود السبب في ذلك إلى أن القرآن ذكر طائفة من الحشرات كالنمل والنحل والذباب والعنكبوت والجراد والبعوض[21].

ولما كانت للحيوان منافع عديدة، وصلته الوثيقة بالعرب في البادية والحاضرة فقد نال منهم عناية فائقة بإفراده بمؤلفات تتناول الأسماء وأسنانه وأوصافه وطعامه وشرابه ودواءه، ومن تلك المؤلفات ما كان شاملا للعديد من الحيوانات، ومنها ما كان خاصا ببعضها لاسيما ما له علاقة مباشرة بحياته اليومية كالإبل والخيل والغنم والطيور والحشرات[22].

ولا غرو أن يؤلف العرب في الإبل أول ما يعمدون إلى التأليف، فيخص اللّغويون الإبل بالرّسائل اللّغوية ويعالجون بعض أمور متصلة بها أيضا ولا عجب إن كانت النّاقة

محاضرات في الموسوعات اللغوية

[19] - محمود سليمان ياقوت، معاجم الموضوعات في ضوء علم اللغة الحديث ص92.
[20] - ينظر: معجم المعاجم، مجموعة اللغات، دون مؤلف، د ط، ص413.
[21] - ينظر: حسين نصار. المعجم العربي نشأته وتطوره ص123.
[22] - ينظر: أحمد بن عبد الله الباتلي: المعاجم العربية وطرق ترتيبها، الرياض 1992، ط1، ص71.

معجزة النّبي العربي صالح، عليه الصلاة والسّلام، ولا عجب إن تشغل النّاقة المكان الكبير الذي شغلته في شعر عرب الجاهلية والإسلام[23].

فالحديث عن الإبل بالتوقف أمام حملها ونتاجها وأجود الأوقات لذلك، كما ذكروا بعض الأدواء التي تصيب الإبل وغيرها من الحيوانات فالفرس عدّة الحرب والفروسية، وآلة الصيد في الصحراء لذا لم يكن غريب أن يتحدث علماء اللغة عن أسماء حيواناتهم المختلفة وأجناسا وصفاتها وأعضائها ومن تلك المؤلفات ما كان شاملا للعديد من الحيوانات ومنها ما كان خاصا ببعضها لا سيما ماله علاقة مباشرة بحياتهم اليومية كالإبل والخيل والطيور والحشرات ومن تلك المؤلفات.

كتاب الإبل: للإمام الأصمعي تناول فيه أسماء الإبل وأمراضها وألوانها، وأنواع سيرها وأصواتها.

خلق الفرس: لأبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي.

كتاب الخيل: لأبي عبيدة معمر بن المثنى، صدره بمقدمة ذكر فيها مبلغ عناية العرب بالخيل ثم ذكر أسماء أجزائه ثم أسنانه، وما يخالف الذكر فيه الأنثى، كما كتب الأصمعي كتابا آخر عن الخيل إلا انه اقل مادة من كتاب الخيل لأبي عبيدة[24].

كتاب الشاء: وهي رسالة موجزة تدور حول "الشاء" للأصمعي، وقد عرض لأنواع الغنم مع حصر الأسماء والمسميات[25].

محاضرات في الموسوعات اللغوية

[23] - ينظر: حسين نصار، معاجم على الموضوعات، ص 47.

[24] - ينظر: أحمد بن عبد الله الباتلي: المعاجم العربية وطرق ترتيبها، ص71

[25] ينظر: محمود سليمان ياقوت، معاجم الموضوعات، ص 111.

وقد تناول فيه أحوال حمل الشاة وولادتها وأسمائها في مختلف أعمارها وأسماء أولادها وأوصافها[26].

كتاب الوحوش: تناول فيه وصف وأسماء الحمير والبقر والظباء والوعول والنعام والأسود والذئاب والضباع والثعالب والأرانب[27].

النبات: تدل الآثار الباقية على أن التأليف اللغوي في النبات تأخر قليلا عن التأليف في الحيوان، وعلى نطاقه لم يتسع في المكتب المستقلة فيفرد كل نوع منه بكتاب وأغلبها، كتاب النبات أو كتاب الزرع أو كتاب الشجر، أو كتاب النخل، كتاب العشب، كتاب البقل ويجمع بعض الرّسائل بين نوعين من النّبات[28].

فالنّبات كان متاعا للعرب وطعاما لهم ولدوابهم ليبحثوا عن الكلإ حيث كان ويمتعون أبصارهم بالخضرة والجمال، فلا عجب أن يتكلموا عنه وأنواعه وأطواره وثماره.

كتاب النّبات والشجر: هي رسالة للأصمعي تناول فيها أسماء النبات وأنواعه ومواضع زرعه وصفاته.

كتاب النّبات: لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينويري، وقد احتوت هذه الرسالة وصف دقيق لكافة أنواعه.

محاضرات في الموسوعات اللغوية

[26] - أحمد بن عبد الله الباتلي، المعاجم اللغوية وطرق ترتيبها، ص72.
[27] - ينظرأحمد بن عبد الله الباتلي، المعاجم اللغوية وطرق ترتيبها، ص72.
[28] - ينظر: المرجع نفسه، ص48.

كتاب النّخل: للإمام أبي حاتم السجستاني، تناول فيه مكانة النخلة وذكر كذلك النوى وأوصافه وأجزاءه ومنافعه وطريقة زراعته[29]. كما تنوعت المؤلفات في مختلف جوانب حياة العرب الاجتماعية فنجد كتاب الأيام والليالي والشهور، المطر، السلاح، البئر، الريح.

- عيوب معاجم الموضوعات:

يعد المعجم الموضوعي واحد من أهم المعاجم اللغوية التي ظهرت في الحياة الفكرية عند العرب وقد جمع الغريب من الألفاظ وتصنيفه حسب المعنى حتّى يمكن الإفادة منه في تفسير الآيات القرآنية[30] فكانت الرسائل اللغوية أسبق إلى الظهور و كانت تفتقر إلى الترتيب الصارم. فإذا وجد في بعضها بعض الترتيب مثلا في كتاب الهمز "لأبي زيد الأنصاري" فستجد فوضى واضطرابا كبيرا في العرض لأن ترتيبه لم يكن ترتيبا أبجديا فلذلك ستجد صعوبة في القراءة والبحث، بل ساقت في المعارف سوقا اعتباطيا[31]، ففي بعض الرسائل ألفاظ دون شرح أو استشهاد عليها، ونجد ألفاظا أخرى يقدمون لها أكثر من شاهد، كما حشدت قصص وحكايات لشرح لفظ واحد. ويمكن أن نلتمس بعض العذر للرسائل اللغوية، لان الرواد الأوائل عندما جمعوا اللغة من بطون البوادي والسنة الإعراب حرصوا على تسجيل معظم ما حصلوا عليه من أولئك[32].

محاضرات في الموسوعات اللغوية

[29] - ينظر: المرجع نفسه، ص73.
[30] - ينظر: محمود سليمان ياقوت، معاجم الموضوعات، ص161.
[31] - ينظر: ديزيره سقال، نشأة المعاجم العربية وتطورها، معاجم المعاني، معاجم الألفاظ، ص29.
[32] - ينظر: محمود سليمان ياقوت، معاجم الموضوعات، ص161-162.

ولكن هذا النوع من المعاجم بات اليوم ملحا جدا، ولا تخفى أهميته على أحد، لأننا بحاجة إلى جمع المادة اللغوية في موضوعات كثيرة على حسب الاختصاص[33].

محاضرات في الموسوعات اللغوية

[33] - نظر: ديزيره سقال، نشأة المعاجم العربية وتطورها، معاجم المعاني، معاجم الألفاظ، ص29.